طائر الفينكس

اسطورة الحياة المثلى

بقلم ميخائيل نعيمه

لعلّ اصعب ما يلاقيه الفكر هو الفصل بين حقيقة الحياة ووهمها . غير ان اكثر الناس لا يفكرون فلا يترددون لحظة في اقامة الحدود بين ما يدعونهُ حقيقة وما يروقهم ان يدمغوه بدمغة الوهم او الخرافة . هكذا فالغراب في نظرهم حقيقة . اما الفينكس فخرافة لا يؤمن بها الاّ البسطاء والقدماء

ألا فليزججني من شاء بين القدماء والبسطاء لانني اومن بالفينكس . وانا اومن بالفينكس لانني اومن بالخيال الذي ابتدعهُ . او ليس الخيال حقيقة ؟ اذنْ كل ما يجول به الخيال ويلده ويغذيه ، سواء كان اجمل الجميل او اقبح القبيح ، يشترك في حقيقة الخيال . ونحن لو نظرنا في الخيال الذي يعمل بغير انقطاع لوجدنا ان ما دون النزر من اعماله يتخذ شكلاً محسوساً . فلو رضينا بهذا النزر وحده حقيقة ، ونبذنا ما بقي كما لو كان وهماً او غير حقيقة ، لكان الخيال ذاته خرافة والانسان نفسه اسطورة

ان خيالاً يلد طائراً كالفينكس لخيال مبدع في ذاته ومن ذاته . الانسان خلق الفينكس . وللانسان الحق ان ينظر الى ما خلقهُ ويقول : « هو حسن جداً » بل انني اضيف الى ذلك ، حتى وان رماني البعض بالتجديف ، ان الله نفسه ، لو انهُ فكّر بطائر كهذا الطائر ، لخلق واحداً مثله . وقد يكون ان خيال الانسان يتمم خيال خالقه . اوَ لم يصنع الله الانسان على صورته ومثاله؟

من روايات هذه الاسطورة الكثيرة الروايات ان الفينكس يسكن الجزيرة العربية . فتعال نفلت من نطاق الجدران والسقوف ونهرب بالخيال الى قلب في مجاهل تلك الشقة من الجزيرة التي دعاها الاقدمون « العربية السعيدة » والتي نعرفها اليوم باسم اليمن . لعلنا نطلُّ على الفينكس في موطنه

هوذا الشمس قد ارتفعت في المشرق . السماء صافية زرقاء ، ونسمات الصبح العليلة تتهادى بين الاشجار مدغدغة اوراقها الفضية . في الغاب نهر وسيع عميق يسير بجلال نحو البحر حاملاً على صفحته الصافية خيالات الاشجار والادغال المتعانقة عن جانبيه . كيفما التفتّ لا ترى الاّ جمالاً وسلاماً . حتى انك لتحسبك في جنة من جنان الفردوس . غير ان الاشجار تحذرك من الانخداع بالظواهر . فهي تعرف ان فيها وعليها وحواليها قد اشتبك الموت والحياة في صراع عنيف . كل ما في الغاب من مخلوقات تمشي ، ومخلوقات تدب او تزحف ، ومخلوقات تمتطي الهواء وتهزه بالاغاريد ، يدأب بلا انقطاع طالباً قوتاً لنفسه او مطلوباً ليكون قوتاً لسواه . ولا مهرب من ذلك الدُردور حتى للصخور التي في الغاب . كل ما ينبثق من الارض تبتلعهُ الارض رويداً رويداً لتعود فتلفظهُ حيوانات

وطيوراً وزحافات وحشرات واشجاراً واعشاباً وازهاراً . فالحياة هنا ، شأنها في كل المسكونة ، تشتعل كعليقة موسى من غير ان تحترق

في رأس اعلى شجرة في الغاب قد جثم طائر لا شبيه له في كل الخليقة . وقد اتجه نحو الشمس فباتت كل ريشة من صدره القرمزي الناعم كما لو كانت تلتهب بنار من عالم آخر . وكل ريشة من جناحيه الذهبيين ، المغموسة اطرافهما في زرقة ولا زرقة السماء ، كما لو كانت تقدح شرراً من شرر الثريا . عنقه الطويل البديع ، المطوق في الوسط بطوق ناصع البياض ، قد تقوّس الى الامام . اما رأسه الدقيق الصنع فقد ارتدّ قليلاً الى الوراء مسدّداً منقاره الطويل الحادّ نحو الشمس . لقد جمع هذا الطائر بين زخرفة الطاووس دون خيلائه وجمال طائر الفردوس دون خجله . هو ينظر بطمأنينة الى الشرق كأنهُ لا يشعر بوجود شيءٍ في العالم سوى الشمس — مصدر النور والحياة . ترفُّ من حواليه طيور كثيرة ، بين كبيرة وصغيرة ، واذ تمرّ به تخفض اجنحتها مسلمة عليه سلام اعجاب واحترام . حتى ان القويّ من النسور الذي يتمكن من الصعود اليه يرفُّ حواليه مرتين او ثلاثاً ثم يهبط الى الارض شاكراً جذلاً

الغاب تعج بالاصوات من طائر يناجي عشيره ، او وحش ينادي رفيقه . الا هذا الطائر الغريب — فهو لا يناجي احداً ولا احد يناديه . اذ لا عشير ولا رفيق لهُ لا في مشارق الارض ولا في مغاربها ، ولا في عالم آخر من العوالم الدائرة في الفضاء . سواءٌ من الطيور منهمك في بناء اعشاش او تربية فراخ . اما هو فلا عش يبنيه ولا فراخ يزقها . سواءٌ من الطيور يرفُّ هنا وهنالك طالباً غذاء . اما هو فلا يقتات بشيءٍ حي بل بالبخور والعطور . سواءٌ من الطيور يضيع فرقاً وقد علق بمخالب عدوّه . اما هو فلا يعرف الخوف لانهُ لا يؤذي مخلوقاً فلا يؤذيه مخلوق . لا ولا تؤذيه العناصر . هو وحيد في العالم كله . لكنهُ لا وحدة في قلبه ولا وحشة . سواء من الطيور يبدل ريشه مرة في كل سنة . اما هو فلم يبدل ريشة واحدة منذ كان لهُ من العمر يوم واحد — وذاك منذ خمسمائة سنة !

لقد نبتت في الغاب اشجار كثيرة فنمت حتى طاولت السحب . ثم هرمت وتفتتت واخلت مكانها لاشجار اخرى . ولقد جرفت الفصول المسرعة اجيالاً لا تحصى من الطيور والحشرات والحيوانات ثم جاءت بغيرها لتحل محلها . ووراء حدود الغاب ، في مملكة البشر ، قد طغت موجة فوق موجة من اعمال الناس ثم تكسرت وتبعثرت على شواطئ الزمان الذي لا بداية لهُ ولا نهاية . امم بكاملها اطلت على الحياة ثم توارت ، فكأنها لم تكن . ومدن عديدة شمخت بابراجها وقببها الى السماء فلم تلبث ان عانقت التراب . ممالك علت ثم انخفضت . غزاة ومغزوون . ابطال وانذال . عاشقون ومعشوقون . رؤوس متوّجة ورؤوس بلا تيجان — كل هؤلاء مشوا على الارض فترة من الزمن ثم عادت الارض فاحتضنتهم ليمشي فوقهم سواهم من ابناء الارض . حيث كانت تكرّ انهار جبارة نبتت اليوم اشواك واحساك وبنى النمل قراه والجرذان جحورها . كم من جنان غناء ابتلعتها الصحراء ، وكم من صحراء أورقت وازهرت ! كم آلهة أُنزل عن عرشه وآلهة أُجلس على عرش ! كل ما في الكون تغير وتحوّل في خلال خمسة

قرون الا هذا الطائر الذي في عينيه — كما في عيني يهوه — «الف سنة كيوم امس العابر وكهجعة من الليل»

غير ان الوقت قد ازف حتى للفينكس ان «يتغير» . لا صوت يهمس في اذنيه . لا اصبع تدله كيف يتجه ولا قوة خارجية تأمره ان يفعل ما هو عازم ان يفعله . لكنه بدليل من نفسه، وبصوت من داخله يدير وجهه نحو الشمال الغربي، وبعد ان يصفق بجناحيه ثلاثاً، يمتطي الهواء ؛ ولا حزن في نفسه على اسماء خمسة قرون يتركها وراءه . ولا خوف من اشواء خمسة اخرى يقابلها . وهو يعرف بصحته كل المعرفة

في وادي النيل البعيد مدينة كان المصريون يدعونها «آتو» واليهود «بيت شمس» والروم «هليوبولس» وفي تلك المدينة هيكل مكرّس لعبادة الاله «راع» . الفينكس يعرف المدينة والهيكل ؛ ويعرف الفسحة على المذبح التي سيستقر عليها . لانهُ منذ اجيال لا تحصى يقصد جلجثته هذه مرةً في كل خمسمائة سنة ليقتبل عليها الموت . ومرة في كل خمسمائة سنة يعود منها تاركاً الموت في حيرة وارتباك

يشقّ الفينكس الهواء بجناحيه القويين مسرعاً نحو وادي النيل . فتجتمع من حوله شتى الطيور لترافقه ولو بعض المسافة فتظهر له تجلتها واحترامها . ولا يزال يطوي المسافات الى ان تبدو لعينيه هليوبولس

في هيكل راع نافذة فوق المذبح تطل منها الشمس فتمتزج اشعتها بدخان البخور وتتصعد منهُ ذوائب من ذهب وفضة كأنها انفاس ارواح تائهة . وهذه الذوائب تلتف وتنحل فوق المذبح كأنها خيوط ممدودة على منوال خفي ويد خفية تحوك منها انسجة غريبة . ليس في الهيكل الواسع المظلم سوى كاهن عجوز غارق في تأملاته

يسمع الكاهن فجأة حفيف اجنحة يقطع عليه مجرى تأملاته . واذ يرفع عينيه يرى على المذبح طائراً يغتسل بنور الشمس ، وقط لم تقع عيناه على اجمل منه . فتأخذه الدهشة لاول وهلة . ولا تلبث دهشته ان تنقلب الى رهبة اذ يحدق في الطائر على المذبح فيراه قد انتصب رافعاً جناحيه الى فوق ، ثم راح يصفق بهما تصفيقاً حاداً . وما هي الا لحة طرف حتى يلتهب الجناحان فيظهران كأنهما مروحتان من نار . فيندمج الطائر بأشعة الشمس حتى يشكل على الكاهن ان يفرق بينهما . وما هي الا لحة اخرى حتى يرتفع الجناحان الى فوق ، وقد كفّا عن التصفيق ، فتبدو كل ريشة فيهما كأنها مشعال نار حية . يكاد الكاهن لا يصدق عينيه من شدة دهشته . فحيث رأى منذ لحظة طائراً حيّاً يبصر الآن السنة من لهيب تثب الى فوق . ويا لهُ من لهيب مدهش لم يسبق له ان أبصر مثله في كل حياته . هو لهيب يرتد البصر كليلاً عن بهائه ، وتسكر الانفاس بعطره . ألا تبارك راع الازلي الابدي الذي يحيي نفسه بنفسه ويحيي كل شيء !

يملأ اللهيب الهيكل باشباح مريعة ، كلها يثب الى فوق ويتلاشى في وثباته . ورويداً رويداً تخمد النار تاركة حفنة من الرماد المتوهج . يا للخسارة ان يهلك طائر بديع كهذا الطائر ، وان يتلاشى في هيئة مفجعة كهذه الهيئة ! ولكن . . . أحقاً انه قد هلك ? يفرك الكاهن عينيه ليتأكد انه ليس في منام . فيرى — ويا للعجب ! — طائراً يخرج من كومة الرماد المتوهج ، كاملاً بكل تفاصيله ، مجيباً بجماله كالطائر الذي التهمته النار منذ لحظة . فيسقط الكاهن على ركبتيه ، ويغطي عينيه بيديه ، ويثني رأسه الابيض حتى يلامس الارض ويتمتم كلمات يكاد لا يسمعها :

هيا رع! ايها الكائن الجميل الذي يجدد ذاته في حينه . ايها العقل الالهي يا وريث الابدية . يا والد نفسه . يا أمير الاوجه السفلى ومدير الأحياء العليا . يا آله الحياة يا رب المجد . كل نسمة تحيا بشعاعك»

***

ان خيالاً جريئاً وخصباً لم ينتج أخصب منه مثالاً كمثال الفينكس . عمق فيه ووشى حواشيه الى ما لا نهاية له . فالقدماء مع محافظتهم على الفينكس كطائر يحيا فرداً ويجدد ذاته بذاته ، قد ابتدعوا اساطير مختلفة لموته وللمدة التي يحياها بين التجدد والتجدد . وما الرواية التي حاولت ان اصورها في ما سبق الا واحدة من تلك الروايات الكثيرة التي ضاع مصدرها في زمان قلما كان يحفل بالاسماء والتواريخ لانه كان يهتم قبل كل شيء بحقائق الحياة الثابتة او بالفكرة الابدية

لا خلاف على ان اسم الفينكس يوناني . والكلمة تعني ، في بعض معانيها الكثيرة نوعاً من النخيل ولعل اليونان عرفوا ذلك النوع من النخيل في بلاد فينيقية اولاً فأسموه باسم البلاد . او انهم اسموا فينيقية باسم ذلك النوع من النخيل لانه كان يكثر فيها . وقد يكون انهم اطلقوا اسم الفينكس على ذلك الطائر الخرافي لانهم اخذوا الاسطورة عن الفينيقيين ، وفي الفقرة الآتية من نشيد بولاق للآله راع ما يدعم الظن بان اسم الفينكس مأخوذ من فينيقية

« المجدُ له في الهيكل عند ما ينهض من بيت النار . الآلهة كلها تحب اريجه عند ما يقترب من بلاد العرب . هو رب الندى عند ما يأتي من ماتان . ها هو يقترب بجماله اللامع من فينيقية محاطاً بالآلهة »

ان يكن اصل الاسم في شك فأصل الطائر ذاته اكثر تعقداً من الاسم . فقد يكون فينيقيًّا . وقد يكون مصريًّا . واقرب شبيه لهُ في الآثار الكتابية القديمة نجده في ذلك السفر المصري الغريب المعروف بكتاب الاموات . وهو مجموعة فصول شائقة في العلوم الباطنية والفلسفة والشعر والسحر يرجع بعضها الى القرن الاربعين قبل التاريخ المسيحي . ولعلَّ هذه المجموعة هي اغرب ما ورثناه عن سكان وادي النيل الاقدمين . فهي من اولها الى آخرها تنبض بإيمان المصريين القدماء بالخلود . فالموت عندهم لم يكن الا سياحة بين عالمين او انتقالاً من شاطئ الحياة الادنى الى شاطئها الاقصى . ولما كان حكماؤهم كانوا يدركون ان عامة الناس اجهل من ان تتناول الحقيقة مجردة تراهم اقاموا لهم بنايات عديدة من الرموز كيما يسهلوا عليهم ان يدركوا بالحس ما هو أبعد من الحس . وكان احد رموزهم طائراً من نوع الغرنوق او مالك الحزين . وكانوا يدعونه « بنو » والاسم مشتق من كلمة تعني الرجوع . وهذا الطائر كان يمثل في اساطيرهم وفي رأسه ريشتان منحنيتان الى خلف . من يطالع « كتاب الاموات » ير ان هذا الطائر كان رمزاً الى راع — الاله الذي ولد نفسه من نفسه ، والذي لا يعرف الموت — النهار المنبثق من حشويّ الليل ، والنور المتغلب ابداً على الظلمة . فمن هذا القبيل ، وكذلك من حيث العلاقة بينه وبين هليوبولس ، ترى ان طائر « البنو » يشترك في بعض خصائص الفينكس . غير انه ليس مذكوراً في كتاب الاموات او في كتاب آخر كطائر يموت بالنار كل خمسمائة سنة او اكثر ثم ينهض متجدداً من رماده

الا ان كاهناً مصرياً اسمه هوراپولـو عاش في القرن الخامس قبل المسيح ، جعل صلة متينة بين البنّو والفينكس . ففي ترجمة كتاباته اليونانية التي وصلت الينا نسمعه يتكلم عن طائر معروف عند المصريين وفي تقاليدهم يجدد نفسه بنفسه . واسمه في الترجمة اليونانية « فينكس » . وبعد ان يتكلم هوراپولـو عن ظهور هذا الطائر مرة في كل خمسمائة سنة يصف موته هكذا : —

«عند ما يشعر الفينكس بدنوّ أجله يطرح نفسه بعنف على الارض فينجرح ويسيل دمه . ومن دمه المتجمد يولد فينكس آخر . وهذا حالما يكتسي بالريش يطير بوالده الى هليوپولس . واذ يبلغانها يموت الوالد عند شروق الشمس . فيحرقه الكهنة المصريون . اما الفينكس الجديد فينطلق الى بلاده»

من بعد هوراپولـو اخذت حكاية الفينكس تنتشر وتزداد شهرة في الغرب الى حد انها استرعت انتباه أكثر المؤرخين والشعراء واللاهوتيين القدماء . ومنهم هيرودوتس . فهذا المؤرخ ، في سياق وصفه لسياحة قام بها في مصر ، يتكلم عن الفينكس كما لو كان طائراً عربياً . ثم يضيف متحفظاً : «اما انا فلم ابصره الاّ في الصور» — لكن الشاعر اوفيد لايتحفظ قط في وصفه . فهو يتكلم عن الفينكس كطائر يجدد ذاته بذاته ويتغذى بالعطور لا غير . ويقول انه بعد ان يعيش خمسمائة سنة يبني لذاته عشّاً من القرفة والناردين والمرّ في رأس نخلة . وفي ذاك العش يلفظ آخر انفاسه . ومن جثته يولد فينكس جديد . وهذا ، عند ما تكتمل قواهُ ، ينتشل العش من الشجرة — وهو مهده ولحد ابيه — ويطير به الى هليوپولس في مصر حيث يضعه في هيكل الشمس . واكثر جرأة من الشاعر اوفيد المؤرخ طاسيتوس الذي لايتردد في ذكر ظهور الفينكس كحادث تاريخي في زمان القنصل پولس فابيوس (سنة ٣٤ م)

كذلك درجت حكاية الفينكس على ألسنة القدماء واقلام كتّابهم وشعرائهم . وكان آباء الكنيسة المسيحية اكثر الناس اقبالاً عليها . فقد اتخذها امثال ترتوليانوس وكلمندس وايفانيوس وسواهم رمزاً لقيامة المسيح من الموت . اما روفينوس فقد وجد فيها حجة لا تدحض على ولادة المسيح من عذراء اذ قال : « ما بالنا نستغرب ان تحبل العذراء وتلد ومن المثبت ان الطائر الشرقي المعروف باسم الفينكس يولـد ذاته من غير ذكر ويحيا ابداً وحيداً ولا رفيق له من جنسه . وابداً يخلف نفسه بنفسه ؟»

من اقدم الآثار الكنسيّة التي فيها ذكر للفينكس كتاب «الفيزيولوغوس» الاسكندري ، وهو مجموعة حكايات وثنية عن الحيوانات والطيور استخلص منها جامعوها مواعظ وارشادات وحججاً دينية . وقد ورد فيها ان الفينكس طائر هندي لايتغذى بشيء الاّ الهواء . ومرة في كل خمسمائة سنة يقصد هليوپولس حاملاً على جناحيه انواع الطيب . وهناك يحرق نفسه على مذبح الهيكل . فتخرج من رماده دودة تتحول بعد ثلاثة أيام الى فينكس كامل . وهذا الفينكس يحيّي الكاهن ثم يطير الى بلاده . وتنتهي الحكاية بالموعظة الآتية : —

« يا لهُ من رمز كوّنه الله لارشاد الناس . فالله ، خالق السرّ الذي تم في المسيح ، قد بيَّن لنا هنا مشيئته . المسيح كالفينكس ، جاء بعد قرون عديدة حاملاً طيوب الحياة واتخذ طبيعة بشرية ومثلما يُعِدّ الفينكس لحده على المذبح في مدينة الشمس المصرية ، هكذا رفع المسيح صليبه بارادته

على الجلجثة في مدينة اورشليم . ومثلما يشتاق الفينكس الى قبره ويحرق نفسه حتى الموت ، هكذا قتيل المسيح للموت وانفصلت روحه عن جسده . وكما ان الدودة المولودة من رماد الفينكس تتحوَّل بعد ثلاثة ايام الى طائر كامل ، هكذا اقام الله الكلمة جسده في اليوم الثالث . وكما ان الفينكس يستكمل قواهُ وشكله في اليوم الثالث ، كذلك جسد المسيح الناهض من القبر اصبح ابديًّا وغير متغير . ومثلما يعود الفينكس الى الهند – موطنه الأول – هكذا عاد المسيح بجسده الجديد الى موطنه الأبدي »

وفي اللاتينية كتاب يدعى Anecdota Syriaca وهو مجموعة حكايات سريانية وردت فيه حكاية الفينكس هكذا

« يقولون كذلك ان في بلاد الهند طائراً عظيماً يأتي مرة في كل خمسين (كذا) سنة الى جبل لبنان وهناك يجمع اطيب العطور واجمل الازهار ثم يعود الى الهند . ومجيئه يكون في شهر نيسان . في ذلك الشهر يقيم كاهن المنطقة مذبحاً على رأس جبل عال ويبني حول المذبح شبه بيت من اغصان الكرمة فيأتي الطائر ويدخل البيت ويقف على المذبح . ثم يأخذ يصفق بجناحيه حتى يلهبها ويلتهب البيت معهما الى ان يصبح الكل رماداً . وبعد ثلاثة ايام يصعد الكاهن الى قمة الجبل ويتفحص الرماد وفيه يجد دودة صغيرة . والدودة هذه تكبر وتتحول الى طائر كالذي احترق . وهذا الطائر يعود من حيث أتى . وكما ان لهذا الطائر ان يحرق نفسه ثم يجددها تماماً ، فبالاحرى قوة المسيح على اقامة جسده الطاهر من القبر . حقًّا قيل في الانجيل المقدس (يوحنا ١٠ — ١٨) : « ولي سلطان ان ابذلها ولي سلطان ان آخذها ايضاً » ألا فلنذهب الى الرب يسوع بالصوم والصلاة والعطور الطيبة والاعمال الصالحة لكون اهلاً لان نقبل من ملكوت السموات »

***

لقد بقي الايمان بالفينكس حيًّا خلال عصر التجدد (الرنسانس) . وبعد ذلك اخذ يتقهقر من وجه « العلم » الذي لا يؤمن الا « بالبرهان الحسي » . حتى اصبح « خرافة » قلَّ من يهتم بها ، وقلَّ من يعرف عنها اكثر من اسمها . غير ان الفينكس ما أُدرج في اكفان النسيان والاهمال الا بعد ان ترك في العالم آثاراً من جماله لا تمحى ويندر ان تجد امة قديمة لم تنسج على مثاله ولم تخلق لها طائراً قريباً منهُ . فالعرب قد خلقوا العنقاء والسمندل . والفرس « السيمورغ » . والهنود « غارودا » . والصينيون « فنغ – هوانغ » واليابانيون « هو – أو » . من شاء ان يقابل بين رقي الامم الروحي فليقابل بين الطيور التي ابتدعها خيالها ففي المقابلة درس جميل ولذة كبيرة . اما انا فلي لذة اكبر في درس الفينكس . وقبل ان اودع هذا الطائر العجيب احب ، اذا استطعت ذلك ، ان انفذ الى سره فاعرف القصد من وجوده . لنقل انه رمز . ولكن الى ماذا يرمز ؟ ألعله وليد شوق الانسان الفاني الى عدم الفناء ؟ ام تراه قناعاً من الجمال حاكهُ الوهم لاعين قرحتها الشناعة ؟ ام هو رؤيا من رؤى الالهام التي يبرز الآباد بطرفة عين وينفذ من خلال الاشكال الحسية الى روح الاشياء وجوهرها ؟

ان اكثر الباحثين الذين وقفت لهم على رأي في الفينكس يتخلصون منهُ بقولهم ان المصريين القدماء اتخذوه رمزاً للشمس في شروقها وغروبها . لانهم كانوا يعبدون الشمس تحت اسم راع . واذ اني

لست بحاثة ولا عالماً امنح لنفسي ان اناقض هذا الرأي دون ان اجلب لذاتي سخط البحاثين وعداوة العلماء.

لا جدال في ان سواد الشعب المصري القديم كان يتخذ الشمس الهاً له . اما مؤلفو «كتاب الاموات»، وشائدو الاهرام، وخالقو ايزيس واوزيريس واسرارهما، ومعلمو ديموقريطوس وفيثاغوروس وافلاطون ، فكيف نصدق انهم كانوا يعبدون جرماً سماوياً — مهما عظم ذلك الجرم وعجب — وهم قد رادوا الفضاء واكتشفوا سبل النجوم ؟ بل ان الشمس لم تكن لامثال هؤلاء اكثر من رمز محسوس لـ « راع » — الوالد نفسه من نفسه . المحيط بكل شيء ولا يحيط به شيء . المبدع الاشكال ولا شكل له . والخالق البدايات والنهايات ولا بداية له ولا نهاية . وما آلهة المصريين ، على وفرتها ، سوى صفات متنوعة لذلك الاله الواحد . ان من يقرأ كتاب الاموات ، ولو قراءة سطحية ، لا يسعه ان يقول غير هذا القول . وانا اجلّ حكماء المصريين عن حماقة تجعل من الشمس رمزاً لراع ، ثم تخلق الفينكس الذي لم يكن يبصره الا نفر قليل من الناس — وذلك مرة في قرون عديدة — لتجعله رمزاً للشمس التي يراها كل انسان في كل يوم . انما يرمز الفينكس الى ما هو ابعد وابقى من الشمس — الى الحياة في مظهريها كمادة وروح

في خواء الظواهر المتقلبة تعوّد الانسان ان يميز بين نوعين من التغيير ، وان يدعو الواحد موتاً والآخر حياة . اما الفينكس فكأني به يقول ان الحياة والموت واحد لان مصدرهما واحد ، وهو الروح المرموز اليه بالنار . فالنار ابداً هي هي . تلتهم الاشياء ثم تنوعها وتكثرها لكنها لا تلتهم ولا تنوع او تكثر ذاتها . هي النار او الروح — تلك الحياة الاولية التي يدعوها العلم الحديث « قوة » تنظم ذرات الاشياء على اختلاف انواعها ثم تنثرها . فهي متغلغلة في كل شيء — في ركام الجليد الطافي على وجه المياه مثلها في الشمس، وفي الرماد مثلها في كتلة اللحم النابضة في صدر الانسان، وهي عندما تلتهم شيئاً تردّه الى عناصره الاصلية، لكنها لا تتلاشى ، بل تنعتق من سجنها الوقتي . وهكذا عندما يحرق الفينكس نفسه لا « يموت » حتى لحظة واحدة . لان النار التي هي روحه تبقى حيةً في رماده . وهي التي تعود فتجمع ذرات جسده من جديد . فهو ، وان بدل جسده مرة في كل خمسمائة سنة ، لا يبدل الروح التي لا يطرأ عليها انقطاع ولا تغيير

ثم ان الناس يتباهون بما يدعونه « نموّاً » و « تقدماً » اما الفينكس فكأني به يقول ان ليس في الحياة نموّ وتقدم . اذ ان كل ما ينمو يحمل في داخله جراثيم موته واضمحلاله ، وكل ما يموت ويضمحل لا يدوم ، وكل ما لا يدوم لا وجود او لا حقيقة له في ذاته . بل هو يتناول حقيقة وجوده من الحقيقة الواحدة التي هي اليوم مثلها امس . وغداً مثلها اليوم . فلا يطرأ عليها اقل تغيير او تبديل . وهي لا « تنمو » اذ لا شكل لها ولا قياس ، ولا بداية ولا نهاية . وهي لا « تتقدم » اذ ليس في الوجود ما هو خارج عنها لتتقدم من ذاتها اليه . الفينكس يقول ان السبيل الاوحد الى « النمو » هو بالنقصان — بالتجرد من الاشكال الخارجية للتوصل الى الحقيقة الكامنة في الاشكال — الى النار التي هي رمز الروح الكائن في كل شيء . وان السبيل الاوحد الى « التقدم » هو بالرجوع الى الوراء — كل الى هليوبوليسه

اما المدة التي يحياها الفينكس بين التجدد والتجدد، والتي تختلف باختلاف الروايات بين خمسين وخمسمائة وخمسمائة وثمانين والف واربعمائة واحدى وستين، حتى وسبعة آلاف سنة، فالمتفق عليه انها ترمز الى ادوار وتقلبات فلكية. فنتركها لعلماء الهيئة. غير ان فيها معاني لا علاقة لها بدورة الافلاك. فكأني بالفينكس الذي يعمر مثل هذه الاجيال الطويلة يقول ان اعمار الكائنات موقوفة على جمال حياتها الباطنية وائتلافها مع ذاتها ومع ما حواليها من كائنات سواها. فهي تطول بطول تلك الالفة وتقصر بقصرها. هكذا ترى الفينكس الذي لا يسطو على مخلوق من اجل طعامه، ولا يقاتل مخلوقاً من اجل رفيقة او عشيقة، يعيش في الفة مع كل مخلوق. ولانه لا يشتهي شيئاً تراه لا يخاف شيئاً بل يحيا في سلام مع كل شيء. ومن ثمّ فانا لا اعرف مثالاً كمثال الفينكس يبين لك ان نقاوة الجسد — كنقاوة القلب — قوة لا تقهر. فهذا الطائر لا يغذي جسده بنبات الارض او بحيوانها، بل بعطورها. لذلك يعمر قروناً طويلة. الا ان هذا الغذاء، على كل ما فيه من طهارة، معرض للانحلال. ولذلك يتعرض جسد الفينكس الذي يتغذى به للانحلال حتى بعد قرون. فالنظام الاعلى قد حتّم على كل ما يولد من مصدر قابل للتغير ان يكون عبداً للتغير. وعلى كل ما يتغذى بالمادة ان يغذي بدوره المادة. وكل ما يأخذ ان يعطي بقدر ما يأخذ. وكل ما يشتهي شيئاً خارجاً عن ذاته ان يكون عبداً لشهوات الاشياء الخارجة عن ذاته

هناك صفة تفرّد بها الفينكس عن كل الطيور التي ابتدعها خيال الانسان. فهو ابداً وحيد ولا رفيق له من جنسه. كأنه ذكر وانثى معاً. وكأني به يعلن بذلك مع الناصري ان في الوجود ارجاءً «لا يتزوجون فيها ولا يزوجون». وان الذكر والانثى عنصران مختلفان في دورة محدودة من دورات الحياة. وان الاثنين يتوحدان في عوالم غير عالمنا هذا. ولك، ان انت انستَ من نفسك ميلاً الى التعمق في بواطن الحياة، ان تقرأ في الفينكس معاني غير التي قرأت واجل مما قرأت الا انك قد تكون ممن لا يؤمنون بغير ما يلمسون ويبصرون. وحينئذٍ فالغراب احق بايمانك من الفينكس. وما الفينكس عندك الا خرافة متهرئة واسطورة قديمة. ألا خذ غرابك واعطني الفينكس

***

ها أنا اطبق اجفاني فتنهض امامي من خرائبها مدينة آنو العاتية الزاهية — هليوبولس — بيت الشمس — وقد قام في وسطها هيكل رائع بكل أبهته. وعلى مذبح الهيكل أبصر طائراً مغموراً بنور الشمس وهو يصفّق بجناحيه الجميلين تصفيق جذل وغبطة. ها صدره القرمزي قد التهب فتحولت كل ريشة فيه الى لسان من نار ثم تحول الطائر كله الى ذبيحة متوهجة ونور معطر وعناق محرق بين الحياة والموت. واذ تهدأ النار فأبصر فينكساً جديداً ناهضاً من كومة الرماد؛ اهتف كالمسحور مع كاهن الهيكل: «يا راع! ايها الكائن الجميل الذي يجدد ذاته في حينه. ايها الطفل الالهي. يا وريث الابدية. يا والد نفسه. يا امير الارجاء السفلى ومدبر الاحياء العليا. يا اله الحياة. يا رب المجد. كل نسمة تحيا بشعاعك.»

بشر فارس

الذكرى

ورقةٌ جفَّت على غصنٍ ذوي
فزِع العصفورُ منها فانزوى
عبث الطَّلُّ بها ثمَّ ارعوى
نبذتها الريحُ في عُرضِ الفضا

شاخ حبّي فذوى ثمّ انطوى
مال عنه القلبُ ، فلاّبَ جوى
تميتَ الرشدُ بهِ حتى ارتوى
عضّهُ الذلُّ فولّى مُرمضا